الصدق والكذب في الشعر

د • بهجت عبدالغفور
المدرس بقسم اللغة العربية
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

هذا موضوع كنت اتردد كلما حاولت الكتابة فيه ؛ لانه موضوع شائك قد لا يخرج الباحث فيه بنتيجة •

ومع هذا كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لان اكتب فيه ، وكلما قرأت أو تصفحت كتابا قديما من كتب البلاغة والنقد زادت تلك الرغبة ، اذ وجدتها تتناول الموضوع بشكل يغري بالأطلاع والوقوف على مجمل الاراء التي قيلت فيه •

وبعد العزم الاكيد ألزمت نفسي في أن أقف على آراء القدامى أولا ، وأن أنظر في آراء المحدثين ، لكي اعالج المسألة من جذورها وألم بالموضوع من أطرافه ، ولعلي بعد هذا اصل الى ما ترتاح اليه النفس من حكم صادق في هذه المسألة المعقدة •

لقد وجدت النقاد في هذا الموضوع مختلفين قديما وحديثا ، فمنهم من أجاز الكذب في الشعر معتمدا قول القائل « أعذب الشعر أكذبه » ومنهم من رفض لكذب ، ولم يقبل منه الا ما كان صادقا ، وربما حرّف الكلم عن مواضعه ، فقال : « بل اعذب الشعر أصدقه » •

وقبل الخوض في الموضوع ارى من الضروري ان احدد معنى الصدق ومعنى الكذب ، في الشعر ، فأقول : الصدق في التجربة الشعرية ، هو ان يعبر الشاعر عن عواطفه واحاسيسه بصورة صادقة ، كما أحس بها دون مبالغة ولا تهويل •

أما الكذب ، فهو ان يعبر الشاعر عن احاسيس غير صادقة وغير حقيقية ، مع المبالغة والتهويل .

لقد رفض القرآن الكريم هذا النوع من الشعر ، الذي لا يعبر عن الحقيقة ، كما تشير الى ذلك الاية الكريمة « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلمو وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[1] .

والحق ان اول من تصدى لمعالجة المسألة هذه ، هو الفيلسوف ارسطو طاليس في كتابه « الشعر » حيث قال : « الفن ضرب من المحاكاة »[2] .

وجاء النقاد بعده ليختلفوا في تفسيرهم لمعنى المحاكاة هذه ، وهل معناها أن الفن يقلد الطبيعة تقليدا اعمى ؟ أم انه يختار منها بعض العناصر ويحذف العناصر الاخرى ؟ وفي مثل هذه الحالة ، هل ينقل هذه العناصر المختارة كما هي ، أم هو يخلع عليها غلالة من المثالية ؟

أقول : ان الفن لا يمكن ان يقلد الطبيعة تقليدا اعمى ، ولا يمكن ان يكون الفنان كآلة التصوير ، ولا يعني هذا وجود الكذب في الفن ، اذ ينبغي ان نميز بين الكذب الذي ينصرف الى تغيير الحقائق ، وبين الكذب الفني الذي يلجأ اليه الشعراء والادباء ، وهو ـ بالتأكيد ـ غير الكذب الذي نستهجنه ونعده من الرذائل انه الكذب الفني الذي ينبغي ان لا نخضعه خضوعا مباشرا للمعايير المنطقية والاخلاقية .

ومع هذا فاننا نجد من النقاد من ربط الموضوع بالاخلاق ، وربما كان ذلك بتأثير الاسلام ، خاصة عندما قرأ المسلمون الآية الكريمة التي تذم الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون ، ولربما كانت مقولة عمر بن الخطاب (ض) في زهير بن أبي سلمى ، صدى لهذا المفهوم ، حيث قال في مدحه : « كان زهير لا يعاضل في القول ، ولا يتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه »[3]

والى مثل هذا يشير حسان بن ثابت في بيتيه المشهورين[٤]

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقا

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

يقول وليد الأعظمي : « وواضح ما يريده حسان من الشعر وما ينبغي ان يكون عليه ، وهذا هو الذي يريده الاسلام ، وهو الذي يريده الشاعر المسلم ، انه لا يريد اعجاب الناس بمبالغته ووصفه المعقد وتركيبه الغريب وانما يريد التأثير بالحق ، والناس دائما تتأثر بالصدق ولو كان غير منمق العبارة »[٥] .

لقد ربط الاستاذ وليد الشعر في تفسيره هذا بالاخلاق ، والنقاد في هذا كما قلت مختلفون ، حيث يرى فريق منهم ان لا علاقة بين الشعر والاخلاق وفريق اخر يرى العكس بشرط ان لاتؤثر حقيقة الاخلاق على فنية الشعر ، فيضيق الشاعر أمام معالم الاخلاق وامام ما فيها من الحقائق، ويمنعه ذلك من ان يساير الهامه وان يجري مع طبيعته .

وعلى هذا فالأ صمعي يرى ان الشعر اذا ادخله في باب الخير لان[٦] . ولا نرى هذا ، بل نرى ان قوة الشعر وضعفه لا تكمن في الموضوع الذي يتناوله الشاعر ، وان كان لذلك أثر ، ولكنه أثر ضعيف ، ويظل الامر متعلقا باحساس الشاعر وعمق التجربة الشعرية وصدقها . فكم من شاعر أجاد في مواضيع تعد من أبواب الخير ، وماذا نقول في باب المديح مثلا ، وفي قصائده الجياد ؟ .

ومن النقاد من نظر الى الموضوع بغير هذا المنظار ، فقسم الكلام الى مطبوع ومتكلف ، وان الجيد منه ما جاء عفو الخاطر غير متكلف ، حيث يقول الجاحظ في تفسيره لحديث الرسول (ص) « انا معشر الانبياء بكاء » يقول : والبكاء القلة وان المراد بقلة الكلام هنا ترك التكلف والبعد عن الصنعة وايراد الالفاظ بقدر يدل على ما في الضمير ... ثم يستدل على ذلك

بقوله :« وقد علمنا من يقرض الشعر ويتكلف الاسجاع ويؤلف المزدوج ويتقدم في تحبير المنثور ، وقد تعمق المعاني وتكلف اقامة الوزن ، والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً مع قلة لفظه ووعد هجائه أحمد امرا واحسن موقعا من القلوب ، وقال عامر بن عبد قيس : الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلوب واذا خرجت من السان لم تتجاوز الآذان »[٧] .

ويرى ابن طباطبا ان المعاني التي تجعل الشعر حسنا اذا وافقت ما في النفس تضاعف حسن موقعها عند مستمعها ، ولا سيما اذا ابدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها والتصريح بما كان يكتم منها والاعتراف بالحق في جميعها[٨] .

ومن الشعراء من التزم مذهب الكذب في الشعر ، ودافع عنه ، ورد على الذين يلزمون الشاعر ان يجري مقاييس الشعر على حدود المنطق ، وان لا يدعي الا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ذلكم هو البحتري القائل :

كلفتمونا حدود م منطقكم ... والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج ... بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي اشارته ... وليس بالهذر طوّلت خطبه

ويتناول قدامة بن جعفر هذا الموضوع بشكل اوسع ، حيث يقول :

« إني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر ، وهما : الغلو في المعنى اذا شرع فيه والاقتصار على الحد الاوسط في ما يقال منه ، وان قوما يقولون ان قول مهلهل بن ربيعة » :

فلولا الريح اسمع من بهجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

قالوا : هذا خطأ من اجل انه كان بين موضع الرمية التي ذكرها وبين هجر مسافة بعيدة جدا ، وكذلك يقولون في قول النمر بن تولب :

أبقى الحوادث والايام من نمر ... أشباه سيف إثره بادي
تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادي

قال : وفريق آخر يستحسن في وقت آخر ما يروون من طعن النابغة على حسان بن ثابت في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وبعد هذا يصرح برأيه ، فيقول : « ان الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما »[٩] .

ثم يقول : « وقد بلغني عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر أكذبه ، وكذا ترى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم ، ومن أنكر على مهلهل قوله المتقدم ، فهو مخطىء ؛ لانه وغيره ممن ذهب الى الغلو ؛ انما اراد به المبالغة بما يخرج منه الموجود ويدخل في باب المعدوم ؛ فانما يريد به المثل وبلوغ الغاية في النعت ، وهذا احسن من المذهب الاخر »[١٠] .

وتفسير قدامة للغلو لا يقنعنا تمام الاقناع ، اذ اننا نبقى نرفض الغلو في الشعر ، ولا سيما الغلو الذي يدخل في باب المعدوم ، حيث لا يمكننا تصوره أو فهمه ، وان كان المراد به المثل وبلوغ الغاية فالافضل تشبيه شيء بشيء معلوم .

ويؤيد قولنا هذا صاحب الموشح الذي ينقل رأيا لابن طباطبا المتقدم ذكره ، لا يجيز فيه المبالغة ، والغلو ، ويرى ان الشاعر يجب ان يجتنب الاشارت البعيدة ، والايماء المشكل ، ويعتمد ما خالف ذلك ، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ، ولا يبعد عنها [١١].

أما أبو هلال العسكري ، فقد قسم المبالغة الى قسمين ؛ مقبول ومردود، وفرق بينها وبين الغلو ، فالغلو ــ عنده ــ تجاوز حد المعنى ، والارتفاع الى غاية لايكاد يبلغها : كقوله تعالى : « وبلغت القلوب الحناجر » . أما المبالغة ، فهي ان تبلغ المعنى اقصى غاياته . ولا تقتصر في العبارة على ادنى منازله ، واقرب مراتبه ، ومثله من القرآن . قوله تعالى : « وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى »[١٢] .

وهو يرى ان لهذا الباب ، والمبالغة عيوبا ؛ هي ان يخرج الى المحال ويشوبه بسوء الاستعارة ، وقبح العبارة ؛ كقول امرى القيس :

توهمتها في كأسها فكأنما ... توهمت شيئاً ليس يدرك بالعقل
وصفراء في كاسات روحها ... وقد مات من مخبوئها جوهر الكل
فما يرتقي التكييف منها الى مدى ... تحُدّ به الاّ ومن قبله قبل

يقول أبو هلال : « جعلها لا تدرك بالعقل ، وجعلها لا أول لها ولا اخر ، وقوله : « جوهر الكل » و « التكييف » في غاية التكلف . ونهاية التعسف ، ومثل هذا من الكلام مردود لا يشتغل بالاحتجاج عنه وله ، والتحسين لامره ، وهو بترك التداول أولى على وجه التعجب منه ومن قائله »[١٣] .

ونحن نتفق مع أبي هلال العسكري ، ونبقى نرفض الغلو الذي يرتفع الى حد تجاوز المعنى المعقول الى اللامعقول .

ثم يوضح المرزوقي المسألة ، ويبين حجج كلا الفريقين ، فيقول : ان من قال أعذب الشعر أصدقه ، انما قال ذلك لان تجويد قائله مع كونه في اسار الصدق يدل على الاقتدار والحذق ، والذين اختاروا مذهب الغلو حتى قيل : « أعذب الشعر اكذبه ؛ لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيما يأتيه الى أعلى رتبه واظهر قوته في الصياغة وتمهره في الصناعة . واتسعت مخارجه وموالجه ، فتصرف في الوصف كيف شاء ؛ لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا على المصادقة والتحقيق ، وعلى هذا اكثر العلماء بالشعر والقائلين له »[١٤] .

ونظل على خلاف مع الذين يرون هذا ، ونرى ان باب الاستعارة والمجاز مفتوح أمام من يلتزم جانب الصدق . ويستطيع القائل ان يصل الى أعلى مراتب القول ، مع التزامه به .

أما ابو العلاء المعري ، فيرى ان معظم الجيد من الشعر كذب ، وان رديئه ينقص ويجدب ، فيقول : « وقد كنت في ربان الحداثة وجن النشاط مائلا في صغو القريض اعتده بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ ، ثم رفضته رفض السقب غرسه والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيدة كذب ، ورديئة ينقص ويجدب »(١٥) .

وابن رشيق القيرواني اكثر صراحة في قبول الكذب في الشعر ، ويرى من فضائل الشعر ان الكذب الذي اجتمع ـ الناس على قبحه ـ حسن فيه ، وحسبك ما حسن الكذب ، واغتفر قبحه(١٦) .

ويعلل لنا رأيه هذا بسماع الرسول (ص) لقصيدة كعب ، وكان قد أوعده لما أرسل الى أخيه بجير ينهاه عن الاسلام . فلما جاءه كعب وقال :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيّ الاقاويل

قال : فلم ينكر عليه النبي (ص) قوله ، وكذلك اعتذر حسان بن ثابت عن قوله في الافك بقوله لعائشة رضي الله عنها في أبيات مدحها بها ، وقال فيها :

فان كنت قد قلت الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي اليّ أنامل

فان الذي قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرىء لي ماحل

قال : « فلم يعاقب الرسول (ص) لما يروى من استخفاف كذب الشاعر وان يحتج به ولا يحتج عليه »(٧١) .

والذي يراه ابن رشيق لا يمكن ـ برأينا ـ ان يكون دليلا لقبول الكذب في الشعر ؛ لانه لأيبعد أن يكون كعب بن زهير قد آمن فعلا وشعر بالخطأ ، وظهر بموقف المعتذر أمام رسول الله (ص) ، وكذلك في قصة حسان ، اذ لا ندري مدى صحة اشتراكه في الافك ، ثم على فرض صحة القول ؛ فاننا نشعر من خلال البيتين بصدق الاحاس ، وهذا هو الاساس ـ عندنا ـ في الصدق والكذب في الشعر .

ثم يعود أسامة بن منقذ ليحدثنا عن الافراط والمبالغة في القول ، وهو يرى ان الاقتصار من محاسن الكلام ، لذلك هو يستحسن قول ابراهيم بن العباس الصولي ، اذ يقول :

يا أخا لم أدر في الناس خـلا منـك اسرع هجـراً ووصلا
كنت لي في صدر يومي صديقاً فعـلى عهـدك أمسـيت أم لا

يقول : فصديق الصولي سريع التأثر غير موثوق المـودة ، فهـو في الصبح صديق ، وفي المساء لا يدري حاله ، وهذا الوصف مقبول ؛ لانـه موجود في الطبيعة واخلاط الناس .

ويستقبح الخثعمي لفارس طويل مفرط في الطول يمد يديه الى القليب فيستاح منه الماء ، وهو على سرجه .

يدلي يديه الى القلـب فيستقي في سرجـه بـدل الرشاء المكرب

قال : هذا وصف قبيح ؛ لانها فرط فيه حتـى خرج بـه عـن حد الانسـان[٨١] .

ويدافع الجرجاني بحماس عن وجـوب التزام الصدق في الشـعر ، فيقول : وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه المنيع مناكبه ، وقد قيـل الباطل مخصوم وان قضي له ، والحق مفلج وان قفي عليه هذا ومن سلم من المعاني المعرقة في الصدق المستخرجة من معدن الحق في حكم الجامد الذي لا ينمي والمحصور الذي لا يزيد ، وان اردت ان تعرف بطلان هذه الدعوى ، فانظر الى قول ابي فراس :

وكنـا كالسـهام اذا أصـابت مواميهـا فراميهـا أصابـا

قال : ألست تراه عقليا عريقا في نسبه ، معترفاً بقوة سببه ، وهو على ذلك من فوائدابي فراس[٩١] .

ثم يرد على الذين يرون ان الكذب في الشعر يفتح آفاقا واسعة أمام الشاعر ، فيقول : اعلم ان الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل ، لان المستعير لا يقصد اثبات معنى اللفظة المستعارة ، انما يعمد الى اثبات شبه هناك ، فلا يكون مخبره على خلاف خبره ، كقوله تعالى ، واشتعل الرأس شيبا ، ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهرا ؛ وانما المراد اثبات شبهه ،وان كان هذا كذلك بان فيه ايضا ان لك مع لزوم الصدق والثبوت على محضر الحق الميدان الفسيح والمجال الواسع ، وان ليس الامر على ما ظنه ناصر الاغراق والتخييل الخارج الى ان يكون الخبر خلاف المخبر[٢٠] .

والمسألة ـ على ما يبدو ـ ذوقية يبقى الخلاف فيها ، ويبقى الكذب او الافراط على حد تعبير ابن الاثير مذموما لدى قوم ومحمودا لدى الاخر ، الا ان مذهب الاستعمال عنده (ابن الاثير) هو اعذب الشعر أكذبه ، بل اصدقه أكذبه . ثم يفصل القول فيه ويجعله على درجات متفاوتة ، وان هناك ما هو مقبول من الكذب ، وما هو مذموم ، والممكن او القريب من الممكن لديه هو المقبول[٢١] .

ومما يستهجن برأيه قول عنترة

وأنا المنية في الموطن كلها ... والطعن مني سابق الاجال

ومما جاء على نحوه . قول بشار

اذا غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس او مطرت دما

او كقول النابغة الذبياني

اذا ما ارتعشت خاف الجبان رعاشها

ومن يتعلق حيث علق يغرق

قال : وقوله ارتعشت : تقرطت ، يريد لبس القرط ، وهذا يصف طول قامتها ؛ لكنه من الاوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن الاستحسان .

ومن ذلك قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشـرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا برأيه أشد افراطا من قول النابغة المتقدم[٢٢] .

وعلى هذا فهو يرى ان هناك مذهبا وسطا أو منزلة بين المنزلتين ، وذلك هو مذهب الاقتصاد في الغلو[٢٣] . ثم يرى من الافضل ان يجعل الافراط مثلا ثم يستثنى فيه بلو او بكاد وما جرى مجراهما ، ومثل هذا في القرآن الكريم قوله عز وجل « يكاد البرق يخطف ابصارهم » وكذلك قوله تعالى : « وانه لما قام عبدالله يدعوهم كادوا يكونون عليه لبدا » ومما ورد منـه شعرا ، قول الفـرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وكذلك قول البحتري :

لو ان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسـعى اليك المنبر

أما حازم القرطاجني ، فقد اسهب في بحث الموضوع اسهابا لم يترك فيه زيادة لمستزيد . وعنده ان الاعتبار في الشعر ، انما هو التخييل في أي مادة اتفق لا يشترط في ذلك صدق او كذب[٢٤] .

ويرى ان الذين يقولون بأن الاقاويل الشعرية لا تكون الا كذبا قول فاسد مردود ، وهو يجعل للمعاني الصادقة المرتبة الاولى ؛ لانها أقـوى في التخييل ، حيث يقول : فالصدق والكذب والشهرة والظن اشياء راجعة الى المفهومات التي هي شـطر الموضوع ... وكما ان الالفاظ المسـتعذبة المتوسطة في الاستعمال أحسن ما يسـتعمل في الشعر لمناسبتها الاسـماع والنفوس وحسن موقعها منهما ، وان الشاعر مـع ذلك حيـث يسـتعمل الحوشي والساقط ، فكذلك المعاني التي تكون الاقاويل فيها صادقـة أو مشتهرة ، افضل ما يستعمل في الشعر لكونها تحرك النفوس الى ما يراد منها تحريكا شديدا ، وليست تحرك الاقاويل الكاذبة الا حيث يكون في الكذب بعض خفاء او حيث يحمل النفس شدة ولعها بالكلام المفرط ما ابدع فيه على الانقياد لمقتضاه[٢٥] .

وعلى هذا ، فهو يرى ان الاقاويل الشعرية منها ما هو صدق محض ومنها ما هو كذب محض ، ومنها ما يجتمع فيه الصدق والكذب . وعنده أن الكذب منه ما يعلم انه كذب من ذات القول ، فالذي لا يعلم من ذات القول : هو « الاختلاق الامكاني » وهو ان يدعي الانسان انه محب ، ويذكر محبوبا تيمه ومنزلا شجاه في غير أن يكون كذلك والا مكاني هو أن يذكر ما يمكن ان يقع منه ومن غيره من ابناء جنسه ، وغير ذلك مما يصفه ويذكره .

وواضح في هذا ان حازما قد يبدو أكثر وضوحا من غيره في تفريقه بين الممتنع والمستحيل ، فالممتنع - برأيه - هو ما لا يقع في الوجود ، وان كان متصورا في الذهن ، كتركيب يد أسد على رجل مثلا ، والمستحيل : ما لا يصح وقوعه في وجود . ولا تصوره في ذهن ؛ ككون الانسان قائما قاعدا في حال واحدة [٢٦] .

ويجب ان نقف قليلا عند اراء حازم ، الذي بدا فيها مؤيدا لمذهب الصدق في الشعر ، على ان تتوفر الصفة في الموصوف اساسا ، ثم تجوز بعد ذلك المبالغة على أن لا تخرج عن حيز الوجود . وهذا صحيح الا انني اخالفه في عدة الافراط كذبا ، فليس صحيحا اذ قد يكون القائل مؤمنا بذلك ، فهو اذن صادق في مبالغته .

والحق اننا لم نجد من نظر الى الموضوع نظرة حازم ، ولم نجد عند غيره هذا الشمول ، وهذا العمق ، ونراه اكثر وضوحا في تقسيماته . للاغراض الشعرية من حيث الكذب والصدق . وان للشعر مواطن يصلح فيها استعمال الاقاويل الكاذبة ، ومواطن لا تصلح فيها الا الاقاويل الصادقة ، ومواطن يصلح فيها استعمال الاقاويل الكاذبة والصادقة ، وهو يرى ان استعمال الصادقة والكاذبة اكثر واحسن [٢٧] .

والظاهر ان هذه المسألة قد شغلت البلاغيين والنقاد والادباء عموما ، وهذا ابن حجة الحموي صاحب خزانة الادب ، يتناول الموضوع ، ويورد حجج الفريقين ، ويذكر قولا للنابغة الذبياني ، يقول فيه : « اشعر الناس من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه »

ويستدل بهذا القول على ان الكذب في الشعر مقبول ، وان المبالغة من محاسن أنواع البديع ، ولولا سمو رتبتها ما وردت في القرآن العظيم والسنة النبوية[٢٨] .

أما صاحب التلخيص ، فلم يزد عن الذين سبقوه شيئا ، غير انه فصل القول في المبالغة والغلو ، وذكر الامثلة الكثيرة على ذلك[٢٩] .

واعتقاد الشاعر بما يقول أمر في غاية الاهمية ، ولم اجد من القدماء من تعرض الى هذا ، غير قدامة بن جعفر ، اذ يقول : ومما اختتم به القول ان المحسن من الشعراء فيه ، هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو داثر يجد ، وقد وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة في الشعر ، ووصف الشاعر لذلك ، هو الذي يستجاد لا اعتقاده ، لانه قد يجوز ان يكون المحبون معتقدين لاضعاف ما في هذا الشاعر من الوجد ، فحيث لم يذكروه ، وانما اعتقدوه فقط ، لم يدخلوا في باب من يوصف بالشعر[٣٠] .

ولا اتفق مع قدامة في رأيه هذا ، وارى ان الشاعر يجب ان يعتقد بما يقول ، وذلك لان الاعتقاد مرتبط بقوة الاحساس وضعفه ، فكلما كان اعتقاده أقوى واعمق ، كان احساسه اشد . ولهذا ترى الذين لا يحبون فعلا ، يحاولون أن يظهروا بمظهر من يحب ، وانهم كذلك ولهون مدنفون ، وهذا جرير يقول : لو قدر لي ان احب لتغزلت غزلا لو سمعته العجوز لحنت الى شبابها ، ولا ننسى قول القائل : ما خرج من القلب وقع في القلب ، وما خرج من اللسان لم يتجاوز الاذان .

ورب قائل يقول : ان الشاعر الجيد يستطيع ان يثير فينا الاعجاب ، وينجح في تعبيره ، مع عدم اعتقاده ، وهذا صحيح ، ولكنه يبقى بمنزلة دون الشاعر الجيد الذي يعتقد بما يقول ، وليست النائحة كالثكلى .

ونسمع الدكتور النويهي يقول : « اذا مدح شاعر أميرا فوصفه بالشجاعة أو الكرم ، فاننا لن يكون سؤالنا الاول ؛ هل اعتقد الشاعر اعتقادا صادقا مخلصا بان هذا الامير يتصف بتلك الفضيلة ، وهل اثارت فيه فعلا ما يدعيه من الاعجاب ؟ فان صوّر اعتقاده المخلص ؛ فاننا نقبله قبولا مبدئيا في دائرة الادب ، وان كان لم يعتقد ، فاننا نرفض قصيدته منذ البداية ، ونأبى ان نعدها من الادب اطلاقا »[٣١] .

وقبل ان اختتم الموضوع أود ان اطرح السؤال التالي ؛ كيف نستطيع ان نحكم على الشاعر في قصيدته انه صادق الاحساس أو انه كاذب الاحساس ؟

والجواب على هذا اننا نستطيع من خلال دراستنا للظروف المحيطة بالشاعر ، ومعرفتنا لسيرته التي يحدثنا عنها التأريخ ، كما ان دراسة النص نفسه تساعدنا في معرفة صدق الاحساس او كذبه الى حد ما .

واخرج من هذا كله بنتيجة واحدة ، هي : ان النفس الانسانية هي الحكم الاول ، وان ما تقبله النفس ، فهو المقبول ، وما ترفضه ، فهو المرفوض ، وان العبرة في المعاني الشعرية ليست بصدقها أو كذبها ، بل بقبول النفس لها ، وبمقدار ما تثيره في . النفس من احاسيس منسجمة توحي بصدق القول أو كذبه ثم نعتقد أن هذا أو ذاك لا يضر في الناحية الفنية .

الهوامش

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢٣ ٠
(٢) الشعر : ١٤٠ـ١٤٢ ٠
(٣) الشعر والشعراء : ١/١٣٢ـ١٣٨ ٠
(٤) ديوان حسان بن ثابت : ٢/٤٣٠ ٠
(٥) شاعر الاسلام « حسان بن ثابت » : ١٢٦ ٠
(٦) فحولة الشعراء : ٤٢ ٠
(٧) البيان والتبيين : ٤/٢٧ـ٢٩ ٠
(٨) عيار الشعر : ٥ـ٦ ٠
(٩) نقد الشعر : ٥٢ـ٥٣ ٠
(١٠) المصدر نفسه :
(١١) الموشح : ٢٤٩ ٠
(١٢) الصناعتين : ٣٥٦ـ٣٥٧ ٠
(١٣) المصدر نفسه :
(١٤) شرح الحماسة : ١/١١ـ١٢ ٠
(١٥) شروح سقط الزند : ١/١٠ وصغو القريض : ميله ، والسقب : ولد الناقة ، وغرسه : الجلدة الرقيقة التي تخرج على الولد اذا خرج من بطن أمه ٠ والتريكة : بيضة النعامة ٠
(١٦) العمدة : ١/٢٢ ٠
(١٧) المصدر نفسه ٠
(١٨) البديع في نقد الشعر : ٥٧ـ٥٨ ٠
(١٩) اسرار البلاغة : ٢٥١ ٠
(٢٠) المصدر نفسه ٠
(٢١) المثل السائر : ٢/٣٣٦ ٠
(٢٢) المصدر نفسه ٠
(٢٣) المصدر نفسه ٠
(٢٤) المنهاج : ٨١ ٠
(٢٥) المصدر نفسه ٠
(٢٧) نفسه ٠
(٢٧) نفسه ٠
(٢٨) خزانة الادب : ٢٢٥ ٠
(٢٩) التلخيص : ٣٧٠ـ٣٧٣ ٠
(٣٠) نقد الشعر : ١٤٤ـ١٤٦ ٠
(٣١) عنصر الصدق في الادب : ٣٣ ٠

أهم المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني ، ت هـ ـ رينز · استنابول ١٩٥٤ م ·
- البديع في نقد الشعر ـ أسامة بن منقذ ـ ت : د ـ احمد احمد بدوي والدكتور حامد عبدالمجيد ـ القاهرة ١٩٦٠ م ·
- البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت ـ عبدالسلام هارون · ط(١) ـ القاهرة ١٩٤٩ م ·
- التلخيص في علوم البلاغة ـ جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني ـ شرح عبدالرحمن البرقوقي ـ القاهرة ١٩٣٢ م ·
- خزانة الادب وغاية الارب ـ ابن حجة الحموي ـ دار القدس الحديث ١٣٠٤ هـ·
- ديواوا البحتري ـ ت ـ كامل الصيرفي ـ دار المعارف ١٩٦٣ م ·
- ديوان حسان بن ثابت ت ـ د · وليد عرفات ـ لندن ، ١٩٧١ م ·
- شاعر الاسلام (حسان بن ثابت) وليد الاعظمي ـ الكويت · د ، ت ·
- شرح ديوان الحماسة · أبو علي المرزوقي ـ نشره احمد أمين وعبدالسلام هارون ط (١) ـ القاهرة ١٩٥١ م ·
- شروح سقط الزند أبو العلاء المعري ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ ت ـ مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٤٥ م ·
- الشعر والشعراء ابن قتيبة ـ ت ـ أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م ·
- الصناعتين أبو هلال العسكري ـ ت ـ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ط(١) ١٩٥٢ م ·
- العمدة في محاسن الشعر ابن رشيق القيرواني ـ ت ـ محي الدين عبدالحميد · ط(٢) ، القاهرة ١٩٥٥ م ·
- عنصر الصدق في الادب د · محمد النويهي ـ جامعة الدول العربية ١٩٥٩ م ·
- عيار الشعر ابن طباطبا العلوي ، ت ـ د · طه الحاجري و ، د · محمد زغلول سلام ـ القاهرة ١٩٥٦ م ·
- فحولة الشعراء عبدالملك بن سعيد الاصمعي ـ ت ـ محمد عبدالمنعم خفاجي و د· طه محمد الزيني
- كتاب الشعر ارسطو طاليس · ت ـ شكري محمد عياد · القاهرة ١٩٦٧ م ·
- المثل السائر ابن الاثير ـ ت محمد محي الدين عبدالحميد · القاهرة ـ ١٩٣٩ م·
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء أبو عبدالله المرزباني · القاهرة ١٣٥٣هـ ·
- منهاج البلغاء أبو الحسن حازم القرطاجني · ت ـ محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ م ·

نقد الشعر قدامة بن جعفر ـ ت ـ كمال مصطفى ، ١٩٦٣ م وطبعة القاهرة ١٩٤٩ م ·